ثورة الإمام الحسين (ع) وثقافة الحياة

يتم التداول أحياناً بمصطلحات ومفاهيم من قبيل ثقافة الحياة وثقافة الموت. وبمعزل عن طبيعة النقاش الذي يثيره البعض أنه يتسم بشيء من الصفاء الفكري، أم أن هذه المفاهيم قد أصبحت أدوات في معركة التجاذب السياسي، من المفيد التعرض لهذا البحث من جهة أن طرح السؤال فيه، قد تسهم في تقديم رؤية من وحي حركة الإمام الحسين (ع)، تسمح بفهم حقيقي لفلسفة الحياة وحقيقة الموت.

يقول الإمام الحسين (ع) في بعض خطبه: «إني لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين إلا برماً» أي حياة لا يمكن تحملها، وهو يعود بنا إلى قول للإمام علي (ع) في صفين مفاده: الحياة في موتكم قاهرين والموت في حياتكم مقهورين.

إن الرؤية الإسلامية للحياة الدنيوية المادية (أي حياة الأبدان) تختلف عما يراه اخرون، إذ إن هذه الحياة ليس هدفاً بذاتها وإنما هي وسيلة لحياة أسمى وأعلى، وهي حياة الإنسان في روحه وفي قلبه فبمقدار ما يعمل الإنسان في نفسه تزكية بالفضائل وتحلية بالمكارم وقرباً من اللّه تعالى بمقدار ما تزدهر هذه النفس بالحياة بالمعنى الفلسفي والوجودي وبمقدار ما تسقط بالرذائل بمقدار ما تهوى في الموت. وإذا كانت حياة الأبدان أمراً تكوينياً يكتسبه الإنسان بالخلقة فإن حياة الأنفس ليست أمراً يناله الإنسان بالخلقة وإنما يكسبه بفعله وجهده وتزكية نفسه وبمقدار ما يقترب من الفضائل ويبتعد عن الرذائل.

ولذا كانت دعوة الأنبياء دعوة إلى الحياة «يا أيها الذين امنوا استجيبوا للّه وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» أي إن دعوة الرسول هي دعوة للحياة الحقيقية أي حياة الأنفس والقلوب التي تحصل من أعمال الخير والطاعة والإيمان باللّه تعالى وما حياة الأبدان إلا وسيلة لهذه الحياة توصل إليها وتساعد عليها.

بل إن هذه الحياة التي يكتسبها الإنسان بجده وعمله في الدنيا هي التي تمنحه الحياة بعد تركه للدنيا «لا تحسبن الذين قتلوا في سبيل اللّه أموات بل أحياء» في حين أن الذين كانوا أحياء الأبدان أموات الأنفس والقلوب في الدنيا، هم الذين يخيم عليهم الموت بعد تركهم للدنيا «أموات غير احياء وما يشعرون أيان يبعثون» ويبقون في موتهم كما كانوا في الدنيا إلى يوم القيامة.

ومن هنا فإن حركة الإمام الحسين (ع) انطلقت من رؤية للحياة ترى أن الحياة الحقيقية للأمة لا تكمن بمقدار ما تأكل وتشرب وتترف، فهذه الأمور وإن كانت أموراً ضرورية ومما لا بد منه للحياة المادية وحياة الأبدان، لكن فلسفة الحياة تكمن فيما يعمل عليه الإنسان من تحلّ بالفضائل والمكارم وابتعاد عن الرذائل والماثم، من تمسك بالعدل وابتعاد عن الظلم، من عمل بالاصلاح وصدٍّ للافساد من أمر بالمعروف ونهي عن المنكر من جبه

للباطل وجهر بالحق؛ إلى كل تلك المفاهيم التي جاءت بها الأديان من قيم أخلاقية، ومعانٍ روحية، ومبادئ ترفض الصنمية سواءٌ كانت أصناماً من حجر أو أصناماً سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية... وتدعو إلى الحق والقسط.

إن ثقافة الحياة التي تختزنها ثورة الحسين (ع) تنشد الحياة التي يتحرر فيها الإنسان من أية عبودية سوى عبوديته للَّه تعالى سواءٌ كانت هذه العبودية للذات أو أية عبودية أخرى مصطنعة وبأسماء باطلة وعناوين زائفة من سياسية أو اجتماعية أو سلطوية، والتي تعمل على اغراق الإنسان في الموت، عندما تريد منه أن يعيش عبداً لنزواته وشهواته وغرائزه، لتعمل على استغلال ذلك من أجل منافع رخيصة ومصالح ضيقة ومكاسب فئوية لا تعير عناية للحياة الحقة والكريمة التي تنشدها الأديان وتعمل على تحقيقها الرسالات السماوية ودعوات الأنبياء.

إن الحياة في ظل القهر والظلم والفساد والمنكر والرذيلة هي موت حقيقي، وإن الموت في ظل العدل والحق والكرامة والحرية والعزة هي حياة حقيقية، حياة في الدنيا وحياة فيما بعدها، لأن النفس التي حَيَت بالقيم، قيم الوفاء والحرية والتضحية والاخلاص والطاعة للَّه تعالى؛ هي نفس حية كريمة وإن عاد منها البدن إلى موطنه الترابي؛ والنفس التي أصابها الذل وشل منها العقل وسقطت في الهوى وبعدت عن الحق وعمي منها القلب؛ هي نفس ميتة وإن كان لها بدن يتمتع كما تتمتع الأنعام.

الفرق بين ثقافة الحياة التي تدعو إليها الرسالات السماوية ودعاوى الثقافات الزائفة؛ أن الأولى تدعو إلى حياة القلوب وحياة الأبدان، في حين تدعو الثانية إلى حياة للأبدان وموت للقلوب الأولى ترى في حياة البدن وسيلة وفي حياة القلب غاية وترى الثانية أن حياة البدن هي الهدف والغاية؛ ترى الأولى أن حياة القلب هي الأصل وحياة البدن هي الفرع في حين ترى الثانية أن حياة البدن هي الأصل الأصيل وأنه لا فرع ولا بديل؛ الأولى تنشد الحياتين معاً وترى في حياة البدن قبساً من حياة الروح، بينما تنشد الثانية الحياة الأدنى والأرخص؛ ترى الأولى أن الحياة درجات والموت دركات وأن هدف الدنيا طلب الحياة الأسمى، بينما الثانية اختلط عليها مفهوم الموت والحياة لترى أن هدف الدنيا تحصيل الشهوات وتحقيق النزوات.

عود إلى الحسين (ع) لنقول إن الحياة في فهم الحسين (ع) هي حياة الدين والقيم وإن الأمم تحيا عندما يحيا العدل ويفلح الحق ويموت الظلم ويخيب الباطل؛ وعليه عندما ينتهك العدل ويسود الظلم ويعمد إلى تحريف الدين وتجويف القيم، وعندما ينهى عن المعروف ويأمر بالمنكر ويقمع الاصلاح وينتشر الفساد ولا يعمل بالحق ولا يتناهى عن الباطل؛ فمعنى ذلك أن الحياة الحقيقية للأمة قد أصبحت في خطر، لأن الأمة لا تستطيع أن تحيا حياة عزيزة حرة كريمة في ظل سلطان جائر ظالم مفسد، ومن هنا يصبح بقاء هكذا سلطان دعوة إلى الموت واغراق في الذل ويمسي رحيله دعوة إلى الحياة واشراق للعز.

ولهذا خرج الحسين (ع) لأن سلطان الوقت انذاك كان دعوة إلى موت الدين والقيم والعدل واحياء الظلم والفساد والجهل، ومن هنا لم تكن لنفس أبية عزيزة كنفس الحسين (ع) أن تقبل حياة الموت وموت الحياة، ولم تكن لنفس حية حياة الحسين أن تقبل موتاً لحياة الدين والأمة، بل لم تكن لنفس الحسين أن تبخل بحياة البدن وحياة أصحابه وأهل بيته إذا كانت ثمناً لحياة القيم والدين والعدل والأمة.

لذا أصبحت شهادة الحسين ثمناً للحياة الحقة أي لموت السلطان الفاسد الظالم، أي إن شهادة الحسين (ع) قد أضحت ثمناً لموت الموت ولحياة الحياة أي لحياة الدين والعدل؛ وهل يمكن لمن كان خروجه استمراراً لخروج جده رسول اللَّه (ص) أن يبخل بحياة بدنه إذا كان موت البدن محركاً لحياة الدين والأمة.

لقد أصبحت حياة البدن مقابلاً لحياة الدين والعدل والحق، وإذا كانت ثورة الحسين استمراراً لثورة جده رسول اللَّه (ص) أي هي دعوة إلى الحياة فلن يدخر الحسين جسداً أو وسعاً في بذل نفسه ومهجته عندما يضحى هذا البذل ثمناً لحياة أرقى وأسمى تحيا فيها الأمة حياة العدل والدين والحق.

لقد كانت رسالة الحسين كثورته دعوة إلى الحياة، أحيت الدين وأحيت القيم وأحيت الأمم؛ رسالة تحتضن فلسفة للموت والحياة، يمتزج فيها كل منهما بالاخر، فقد يكون موت ما حياة ما بعدها حياة، وقد تكون حياة موتاً أشد من موت؛ أنها جدلية الحياة والموت، جدلية يدركها من وعى سراً من ثورة الحسين (ع).

الدكتور محمد شقير